عبقرية محمد الإنسانية

للأستاذ أنور المعداوى

[مهداة إلى الزيات الإنسان]

إنسان عظيم ... وذلك أصـــدق ما يقال فيه وغاية ما يقال.

محمد الرسول فى مواقف الرسالة، ومحمد البطل فى مواقف البطولة، ومحمد الصديق فى مواقف الصداقة، ومحمد الوالد فى مواقف الأبوة، ومحمد فى كل موقف من مواقف العبقرية يحتل من نفسى مكاناً لا يدانيه مكان .. ولكن جانباً من جوانب هذا العظيم الذى يملأ أبداً فرق مستوى الأقران والنظراء، يهزنى هزاً عنيفاً كلما تمثلته فى طوايا الخاطر أو بعثته من ثنايا الشعور؛ ذلك هو محمد الإنسان!

قد ينظر غيرى إلى الجانب الإنسانى فى حياة الرسول من خلال المنظار الذى ألفه الناس، حين يتخيلون الإنسانية مجموعة فضائل يجوز أن يشترك فيها العظيم وغير العظيم ... هذا المنظار الذى ينظر من خلاله إلى إنسانية محمد ممثلة فى الرحمة والمودة والألفة والإيثار والعطف، لا يهيئ لصاحبه أن يضع يده على مفتاح هذه الشخصية الفذة فى حقيقتها البعيدة، هناك فى أعمق الأعماق وأبعد الأغوار.

إنسانية محمد لا توزن فى رأيى بذلك الميزان الذى يقام لكل رجل يمكن أن تجتمع فيه تلك الصفات، لتضع بعد ذلك فى مواجهة اسمه كلمة « إنسان » ... وإنما توزن الإنسانية فى هذا العظيم بميزان اللحظة النادرة من لحظات حياته، حين يقف وحده متفرداً فى مجال يعز فيه التفرد على كل شـــبيه وكل نظير. وما أكثر اللحظات النادرة فى حياة محمد الإنسان!

أنا أريد أن أنظر إلى عبقرية الإنسانية فى شخصية الرسول من خلال منظار آخر؛ منظار يحدد الزوايا التى تفترق فى الشهد الإنسانى عن نظائرها فيما تعارف عليه الناس .. إذا قلنا إن محمداً إنسان لأنه رحيم فما أكثر الرحماء، وإذا قلنا إنه إنسان لأنه وفى فما أكثر الأوفياء، وقل مثل ذلك فى سماحة الطبع والمودة والألفة والإيثار والعطف؛ فما أكثر ما كان يملك أصحابه من كل هذه الفضائل والسمات ... ولكن محمداً كان يفترق عنهم جميعاً فى هـذا المجال؛ مجال المفاضلة بين « الإنسان » فى صفاته العليا التى تقررها موازين القيم والأوضاع، وبين « الإنسان العظيم » فى صـفاته المثلى التى يعجز عن تقريرها موازين القيم والأوضاع!

محمد الإنسان النادر لا يوزن إلا بميزان يبحث عن الندرة الخلقية التى تضعه وحده فى كفة، وتضع فى الكفة الأخرى ما شاء لها أن تضع من الناس ... ولن يتهيأ للباحثين أن ينفذوا إلى أغوار حقيقته الإنسانية، إلا إذا وقفوا طويلا أمام تلك المشاهد التى تعرض لهم نماذج من حياة ذلك القلب العظيم؛ نماذج لا تتعدد منها الصور ولا تتكرر الألوان.

سأنظر إذاً إلى محمد الإنسان على ضـوء اللحظة النادرة من لحظات حياته؛ تلك التى قلت عنها إنه يقف فيها متفرداً حين يمتاز التفرد على كل شبيه وكل نظير. لحظات « الضعف الإنسانى » فى حياة الرسول هى وحدها دون غيرها التى تهدى السالكين إلى معالم الطريق؛ طريق الوصول إلى حقيقته الإنسانية ... وإنه لضعف الأقوياء والقادرين حين يشرفون على الدنيا من أعلى قمة من قمم الأخلاق، ليخفضوا للناس جناح الضعف من الرحمة.

هذا « الضعف الإنسانى » فى حياة محمد ناتج من كونه إنساناً عظيما قبل أن يكون نبياً عظيما يحمل مشعل الهداية إلى

جيل من بعده أجيال... إن الرحمة في موضعها أمر لا غرابة فيه ؛ ولكن الرحمة في غير موضعها أمر تكتنفه الغرابة من كل نواحيه . وهكذا كان محمد : فهو في موقف الرحمة حيث تطلب الرحمة « رجل عظيم » ولكنه في موقف الرحمة حيث لا ينتظرها أحد « إنسان عظيم » . وهذه هي اللحظة النادرة التي لا يشاركه فيها أحد من الناس ، لحظة « الضعف الإنساني » المنبعث من غلبة الإنسانية على طبيعته وتغلغلها في كل خليقة من خلائقه ! وهي التي يسميها الباحثون رحمة دون أن يفرقوا بينها وبين الرحمة التي يقدم عليها غير العظيم أو يقدم عليها العظيم وهو غير إنسان .

يقول الأستاذ العقاد في معرض الحديث عن إنسانية محمد : « النبي لا يكون رجلا عظيما وكفى . بل لا بد أن يكون إنساناً عظيما فيه كل خصائص الإنسانية الشاملة التي تعم الرجولة والأنوثة والأغنياء والضعفاء ، وتهيؤه للفهم عن كل جانب من جوانب بني آدم . فيكون عارفاً بها وإن لم يكن متصفاً بها ، قادراً على علاجها وإن لم يكن ممرساً لأدوائها ، شاملا لها بعطفه وإن كان يتكرها بفكره وروحه ؛ لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ، وأخير بسعة آفاق الدنيا التي تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء ؛ لأنه يملك مثلها آفاقاً كآفاقها ، هي آفاق الروح » .

هذه الكلمات التي يسوقها الأستاذ العقاد عن محمد الإنسان تنطبق كل الانطباق على « الرجل العظيم » لا على « الإنسان العظيم » ... لأن الرجل الذي يشمل الناس بعطفه ، ثم يفسر هذا العطف على أنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ؛ هذا الرجل إذا وضع في الميزان صاحب طبيعة خلقية تنبع فيها الرحمة من منابع المنظمة النفسية تلك التي تنظر إلى كل شيء نظرة القمم إلى السفوح أو نظرة الكبير إلى الصغير... وفرق بين رحمة يفرضها على صاحبها التعاظم والكبرياء ، ورحمة يفرضها التواضع الموصول الروابط بالإنسانية في أوسع آفاقها ، وأرفع مزاياها .

أما قول الأستاذ العقاد بأن محمداً لا بد أن يكون إنساناً عظيما لأنه نبي عظيم ، فهو في رأيي لا يثبت ولا يؤكد إنسانية محمد في كثير ولا قليل ، لأن محمداً كان إنساناً عظيما بأدق معاني الكلمة قبل أن يبعث رسولا إلى الناس ، والدليل على ذلك من تاريخ حياته ميسور لكل من يلتمس الدليل ... وذلك أمر لا ريب فيه ولا جدال !

بعد هذا نعود إلى المجال الذي يجب أن يبحث في رحابه عن محمد الإنسان ، مجال اللحظة النادرة من لحظات « الضعف الانساني » في حياته ! هناك حيث تبدو الرحمة في غير موضعها لترفع الغطاء عن حقيقة هذا الإنسان العظيم :

مات عبد الله بن أبيّ ، زعيم المنافقين في عهد الرسول ، ورأس الفتنة التي كانت تنشر سمومها في صفوف المسلمين ، عبد الله بن أبي الذي لم يسلم محمد من كيده وشره ولسانه ، عبد الله بن أبي الذي نزل فيه وفيمن على شاكلته حكم السماء : (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ...

مات هذا المنافق فصلى عليه محمد بعد موته ، ثم تخلى لأهله عن قميصه ليكفنوه فيه ! ثم يقول لعمر حين يعتب عليه متأباً بلغ حد التعنيف والإنكار : « أخر عني يا عمر ، لو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له زدت » ! ... ثم يقول لن يسأله لم دفعت إليه بقميصك وهو كافر : « إن قميصي لن يغني عنه من الله شيئاً ، وإني أؤمل من الله أن يدخل في الإسلام كثيراً بهذا السبب » ! ... ولم يلبث محمد إلا قليلاً حتى سمع رأي السماء : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » !

هذا هو محمد الإنسان متفرداً في مجاله ، متوحداً في فضائله وأعماله ... لقد كان قادراً على قتل عبد الله بن أبي ، ولكنه لم يقتل ، وكان قادراً على أن يشيعه باللعنات ولكنه لم يفعل ، لأنه إنسان ... إنسان يتسع قلبه للدنيا بما فيها : من خير وشر ، من فضيلة ورذيلة ، من إيمان ونفاق ، من وفاء وتنكر للوفاء . ويتسع للدنيا بمن فيها : سواء أكان فيها عمر بن الخطاب ، أم عبد الله بن أبي ، أكان فيها علي زوج ابنته فاطمة ، أم عمار بن الأسود قاتل ابنته زينب ! ... هذه هي اللحظة التي تتجلى فيها الندرة في الطبيعة الخلقية ؛ « لحظة الضعف الإنساني » الذي يدفع

الرسول الكريم إلى لون فذ من الصفح والرحمة ! هناك حيث يأتي الصفح والرحمة على غير ترقب وانتظار ... إن الرحمة كما سبق أن قلت حين تأتي في موضعها تكون سمة من سمات « الرجل العظيم » ، ولكنها حين تأتي في غير موضعها كما حدث هنا تكون سمة من سمات « الإنسان العظيم » ، وفي هذا النطاق نجد محمداً ولا نجد سواه !

ويدفعنا ذكر هبار بن الأسود إلى أن نورد هنا شيئاً من قصته ، فيها لحظة أخرى من لحظات التفرد في عبقرية محمد الإنسانية ... كانت زينب بنت الرسول في طريقها من مكة إلى المدينة ، تلبي دعاء الشوق الأبوي المنبعث من قلب أبيها العظيم ، وكان برفقتها نفر من أهله وصحبه ليكونوا لها ملاذاً من كيد الكائدين وعدوان المعتدين ، ولكن قطاع الطريق ممن خرجوا على طاعة الرسول وكلة السماء قد اعترضوا طريق القافلة المؤمنة والركب الآمن ، لتندى رمال الصحراء بعد قليل بأطهر دم سال على رمال الصحراء . لقد كان دم زينب أراقته رمية رمح من يد المجارم الآثم هبار بن الأسود ؛ وحين يبلغ الأمر محمداً الوالد يتلقاه كما يتلقى الآباء مصارع الأبناء ؛ بالحزن العميق والأسى الدفين ، واللوعة التي تهز في القلب الكبير مكامن الألم والعذاب ! ... ويهدر محمد الرحيم دم هبار بأي مكان وجد ، وبأي بلد نزل ، وبأي حي من أحياء العرب أو العجم حل متخفياً أو سافراً بغير قناع . ويتطلق أصحاب محمد في إثر ابن الأسود لا يتركون فجاً من فجاج الصحراء ولا بقعة من بقاع الأرض ، ولكنهم يعودون صفر الأيدي من ذلك المعتدي الأثيم ... ويعود الوالد المفجوع إلى حزنه وأساه !

وفي يوم من الأيام التي لا تنسى في حياة الرسول يقتحم مجلسه رجل يخفي وجهه تحت لثامه ؛ رجل لا يملك عينيه من الدمع ، ولا قلبه من الوجل ، ولا لسانه من طلب الصفح والمغفرة وينظر الإنسان العظيم إلى هذا الذي يستجير به ويفزع إليه فيجده قاتل ابنته هبار بن الأسود ، يدفع إليه برمحه ليصنع به ما صنع بزينب جزاء ما اقترفت يداه ! ... وهنا يختفي محمد الوالد المفجوع في أعز ما يملك من دنياه ، ولا يبقى إلا محمد « الإنسان العظيم » في أكرم ذروة من ذرى « الضعف الإنساني » ؛ هناك حيث يخفض لهبار جناح الضعف من الرحمة ... وهناك حيث يخرج هبار وقد غفر له ... وهناك حيث يقف محمد متفرداً في مجال النذرة الخلقية حين يعز التفرد على كل شبيه وكل نظير !

ولحظة ثالثة وما أكثرها من لحظات ... لحظة قد يمر بها المجالي فلا يقفون أمامها طويلاً ليتأملوها تأمل المنقبين في البحث عن جوهر النفوس ومعدن القلوب ، حين يصهرها وهج الرحمة في بوتقة « الضعف الإنساني » ؛ ضعف الأنبياء والقادرين !

طفل يموت ... وما أكثر ما يموت الأطفال وغير الأطفال فيتجلد الآباء أمام شبح الموت ووقع المصيبة ؛ لا يترقرق في مآقيهم دمع ، ولا يعصف بقلوبهم حزن ، ولا يذهب بصبرهم وقدة شعور ملتاع ، وقد يكون المفجوعون أناساً لا حظ لهم من مقارعة الخطوب ولقاء الشدائد ومغالبة الأهوال ! ولكن موت إبراهيم يهز في نفس محمد كوامن الشجن ، ويهز في عيني محمد عصي الدموع ، محمد الذي لم تهزه الدنيا بكل ما ادخرته له من محن يرفض منها الصبر وتخورمعها العزيمة ، محمد الذي توكأت على كتفيه عوادي الزمن يسير وراء إبراهيم متوكئاً على كتفي عبد الرحمن بن عوف ! ومعذور ابن عوف حين يستكثر البكاء على الرسول ويشكو البكاء على الرسول ؛ لقد كان ينظر إلى « الرجل العظيم » الذي بكى ، ناسياً أن الذي بكى هو « الإنسان العظيم » ! ... ومعذور ابن عوف إذ نظر إلى محمد فوجده يبكي على غير ترقب وانتظار ؛ لقد كان عهده به جلداً أمام المصائب ، قهاراً للخطوب ، ولكنه نسي لحظات « الضعف الإنساني » التي تكشف عن صدق الإنسانية حين تنتفض من جيشان العاطفة أمام أصعب الأمور وأيسر الأمور

لحظات « الضعف الإنساني » هي وحدها الميزان الذي توزن به إنسانية محمد دون غيرها من الموازين ، وتوزن به إنسانية محمد دون غيره من الناس ... وهي هنا لحظات ثلاث ، وإنها لقليل من كثير ، وما أكثرها على قلتها في حساب الشعور والوجدان .

أنور المعداوي